العددِ 20 شباط 2026
المجلة العراقية للبحوث الانسانية والاجتماعية والعلمية
No.20 Feb.2026 Iraqi Journal of Humanitarian, Social and Scientific Research
Print ISSN 2710-0952 Electronic ISSN2790-1254

المنهج التداولي في تفسير الخطاب القرآني دراسة تطبيقية في نماذج من التفاسير التراثية الشيعية

مصدق موفق عبد المطلب أبو الهوى
مدرس مساعد - كلية الامام الكاظم أقسام واسط
cmcvv162@gmail.com

المستخلص

يهدف هذا البحث إلى دراسة المنهج التداولي في تفسير الخطاب القرآني من منظور شيعي، من خلال تحليل تطبيقاته الكامنة في نماذج مختارة من التفاسير التراثية، ولا سيما تفسير *الميزان في تفسير القرآن* للسيد محمد حسين الطباطبائي، ومجمع *البيان في تفسير القرآن* للفضل بن الحسن الطبرسي. تنطلق الدراسة من فرضية مفادها أن المفسّر الشيعي، وإن لم يستعمل مصطلح "التداولية" بصيغته اللسانية الحديثة، إلا أنه مارس مقاربة تداولية عميقة في تعامله مع النص القرآني، عبر التركيز على سياق الخطاب، ومقام المخاطَب، ووظيفة القول، والعلاقة بين الدلالة اللفظية والمقصد الهدايي للنص. يعتمد البحث منهجًا تحليليًا يقوم على قراءة نصوص تفسيرية مختارة قراءة تداولية، للكشف عن كيفية اشتغال عناصر السياق، والافتراض المسبق، والإلزام الخطابي، وأفعال الكلام في بناء المعنى القرآني عند المفسّر الشيعي. وتبيّن الدراسة أن المنهج التداولي يشكّل أحد الأبعاد المركزية في الرؤية التفسيرية الشيعية، إذ يُنظر إلى القرآن بوصفه خطابًا حيًّا موجَّهًا، لا نصًا جامدًا، وأن فهمه لا يكتمل إلا باستحضار شبكة العلاقات التي تحيط بالفعل الكلامي الإلهي. وتخلص الدراسة إلى أن التفاسير الشيعية التراثية قد أسّست، من داخل المنظومة المعرفية الإسلامية، لممارسة تفسيرية تداولية أصيلة، يمكن أن تسهم في تطوير دراسات تحليل الخطاب القرآني المعاصرة ضمن إطار تأصيلي منضبط.

الكلمات المفتاحية : التداولية، الخطاب القرآني، التفسير الشيعي، الميزان، مجمع البيان.

The Pragmatic Approach in Interpreting Qur'anic Discourse: An Applied Study of Selected Models from Shi'i Classical Exegesis

Musaddaq Muwaffaq Abdul-Muttalib Abu al-Hawa
Assistant Lecturer – Al-Imam Al-Kadhim College (Wasit Sections)
cmcvv162@gmail.com

Abstract:

This study aims to examine the pragmatic approach to interpreting Qur'anic discourse from a Shi'i perspective by analyzing its implicit applications in selected models of classical exegetical works, most notably *Al-Mizan fi Tafsir al-Qur'an* by Sayyid Muhammad Husayn al-Tabataba'i and *Majma' al-Bayan fi Tafsir al-Qur'an* by al-Fadl ibn al-Hasan al-Tabrasi. The study is based on the hypothesis that, although the Shi'i exegete did not employ the term "pragmatics" in its modern linguistic sense, he nevertheless practiced a profound pragmatic reading of the Qur'anic text by focusing on discourse context, the addressee's situational role, the function of utterances, and the relationship between lexical meaning and the text's guidance-oriented intent. The research adopts an analytical method grounded in a pragmatic reading of selected exegetical passages, in order to reveal how contextual factors, presupposition, discourse obligation, and speech

acts operate in constructing Qur'anic meaning for the Shi'i exegete. The study demonstrates that the pragmatic approach constitutes a central dimension in Shi'i exegetical thought, wherein the Qur'an is viewed as a living, directed discourse rather than a static text, and its understanding cannot be completed without considering the network of relations surrounding the divine speech act. The study concludes that Shi'i classical exegesis, from within the Islamic epistemic tradition, established an authentic pragmatic exegetical practice that can contribute to the development of contemporary studies of Qur'anic discourse analysis within a disciplined foundational framework.

Keywords: pragmatics; Qur'anic discourse; Shi'i exegesis; *Al-Mizan*; *Majma' al-Bayan*.

أهمية البحث

تنبع أهمية هذا البحث من كونه يسعى إلى إبراز بعدٍ منهجيٍّ مهم في التفسير الشيعي لم يحظَ بالدرس المستقل الكافي، وهو البعد التداولي في التعامل مع الخطاب القرآني. فالتفاسير الشيعية التراثية لم تكتفِ بتفسير الألفاظ أو بيان المعاني المعجمية، بل انشغلت على نحو عميق بفهم مقاصد الخطاب، وسياقات التوجّه الإلهي، وطبيعة العلاقة بين النص والمتلقّي، وهو ما يتقاطع بصورة واضحة مع مرتكزات المنهج التداولي في الدراسات اللغوية الحديثة. كما تكتسب الدراسة أهميتها من إسهامها في ربط التراث التفسيري الشيعي بالاتجاهات التحليلية المعاصرة، من دون إخضاع النص القرآني لمقولات وافدة، بل عبر الكشف عن الجذور الأصيلة لهذه المقاربات في بنية التفسير نفسه. ويُنتظر أن يسهم هذا البحث في فتح آفاق جديدة أمام الدراسات القرآنية التي تسعى إلى الجمع بين الأصالة المنهجية والانفتاح التحليلي.

مشكلة البحث

تتمثّل مشكلة البحث في غياب دراسات تحليلية معمّقة تُعالج المنهج التداولي في تفسير الخطاب القرآني من داخل المنظور الشيعي، رغم ما تزخر به التفاسير الشيعية من معالجات سياقية وخطابية دقيقة. فمعظم الدراسات التداولية المعاصرة تكتفي بإسقاط المفاهيم اللسانية الحديثة على النص القرآني، من دون العودة إلى المنجز التفسيري التراثي، أو دون مساءلة كيفية اشتغال هذه المفاهيم ضمن رؤية إسلامية أصيلة. من هنا تنشأ إشكالية البحث في محاولة الإجابة عن السؤال الآتي: كيف تجلّت الممارسة التداولية في التفاسير الشيعية التراثية؟ وما حدود الوعي التداولي لدى المفسّر الشيعي في تعامله مع الخطاب القرآني؟

أهداف البحث

يسعى هذا البحث إلى تحقيق جملة من الأهداف، أبرزها:

1. تأصيل مفهوم التداولية في ضوء الرؤية التفسيرية الشيعية.
2. الكشف عن ملامح المنهج التداولي في تفسير الخطاب القرآني عند المفسّرين الشيعة.
3. تحليل نماذج تطبيقية من تفاسير شيعية تراثية للكشف عن آليات الاشتغال التداولي.
4. إبراز إسهام التفسير الشيعي في تطوير فهم تداولي أصيل للنص القرآني.

أسئلة البحث

ينطلق البحث من مجموعة من الأسئلة المركزية، من أهمها:

1. ما المقصود بالمنهج التداولي في سياق تفسير الخطاب القرآني؟

2. كيف تعامل المفسّر الشيعي مع السياق، والمقام، والمقصد في تفسير الآيات؟
3. ما مظاهر التداولية في تفسير *الميزان* ومجمع *البيان*؟
4. إلى أي مدى يمكن اعتبار التفسير الشيعي ممارسة تداولية متكاملة؟

المقدمة

يُعدّ القرآن الكريم خطابًا إلهيًا موجَّهًا إلى الإنسان، يتجاوز حدود الزمان والمكان، ويؤسّس علاقة تواصلية دائمة بين المتكلِّم الإلهي والمخاطَب البشري. ومن هذا المنطلق، فإن التعامل مع النص القرآني بوصفه خطابًا يقتضي تجاوز القراءة السكونية للنص، والانتقال إلى قراءة تفاعلية تراعي السياق، والمقام، ووظيفة القول، وهو ما يشكّل جوهر المنهج التداولي وقد أشار السيد محمد باقر الصدر إلى هذه الطبيعة التواصلية حين عدّ القرآن "خطابًا حيًّا يتفاعل مع حركة الإنسان في التاريخ، ولا يقتصر على بيان أحكام جامدة" (الصدر، *المدرسة القرآنية*، 23). وعلى الرغم من حداثة المصطلح التداولي في اللسانيات الغربية، فإن جوهر هذا المنهج حاضر بوضوح في التراث التفسيري الإسلامي، ولا سيما في المدرسة التفسيرية الشيعية التي أولت عناية خاصة لطبيعة الخطاب القرآني ووظيفته الهدايية. ويؤكد الشيخ محمد جواد مغنية أن القرآن "لم يُنزَّل ليُقرأ بمعزل عن واقع المخاطَبين، بل جاء ليرشدهم من داخل ظروفهم الفكرية والاجتماعية" (مغنية، *التفسير الكاشف*، 5).

لقد نظر المفسّرون الشيعة إلى القرآن باعتباره نصًا هاديًا يتوجّه إلى الإنسان في واقعه، ويتفاعل مع أسئلته، ويؤسس منظومة معرفية وأخلاقية متكاملة. ومن هنا، لم يكن التفسير عندهم مجرد شرح لغوي، بل ممارسة معرفية تتداخل فيها اللغة، والعقل، والسياق، والمقصد. ويظهر هذا بجلاء في تفسير *الميزان*، حيث يؤكد الطباطبائي أن فهم الآية لا ينفصل عن موقعها في منظومة القرآن الكلية، ولا عن السياق الذي وردت فيه، إذ يرى أن "القرآن يفسّر بعضه بعضًا" (الطباطبائي 12). كما يتجلى في مجمع *البيان* للطبرسي، الذي يجمع بين التحليل اللغوي، وبيان سبب النزول، واستحضار جهة الخطاب، بما يكشف عن وعي تداولي مبكر بطبيعة النص القرآني بوصفه خطابًا متعدّد الأبعاد (الطبرسي 45). ويعزّز هذا المنحى ما يذكره الشيخ ناصر مكارم الشيرازي من أن "الآيات تُفهَم في ضوء المقام الذي نزلت فيه، لأن تغييب المقام يؤدّي إلى إخراج الخطاب عن غايته الهداية" (مكارم الشيرازي، *الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل*، 1:18).

وانطلاقًا من هذه الرؤية، يسعى هذا البحث إلى مقاربة التفسير الشيعي مقاربة تداولية تحليلية، للكشف عن الآليات الخطابية التي اعتمدها المفسّرون في بناء المعنى، وإبراز إسهامهم في تأسيس فهم تداولي أصيل للخطاب القرآني. ويستند هذا المسعى إلى ما أكده السيد محمد حسين فضل الله من أن "التفسير الواعي هو الذي يربط النص بحركته الخطابية في وعي الإنسان وسلوكه، لا الذي يحصره في حدود اللفظ المجرد" (فضل الله، *من وحي القرآن*، 1:9).

المبحث الأول: الأسس النظرية للمنهج التداولي في التفسير الشيعي

المطلب الأول: الخطاب القرآني بوصفه فعلًا تواصليًا في الرؤية الشيعية

لا ينظر التفسير الشيعي إلى القرآن الكريم على أنه بنية لغوية مغلقة تكتفي بالإحالة إلى المعنى المعجمي أو النحوي، بل يتعامل معه بوصفه خطابًا إلهيًا يتأسس على الفعل والتأثير، ويستهدف تشكيل وعي المخاطَب وإعادة توجيه سلوكه ضمن منظومة قيمية ومعرفية محددة. ومن هذا المنطلق، تتجاوز وظيفة الخطاب القرآني مجرد الإخبار إلى الإنجاز، أي إلى إحداث أثر فعلي في المتلقي، وهو ما يجعل من الخطاب القرآني ممارسة تواصلية بالمعنى التداولي العميق. ويؤكد السيد محمد باقر الحكيم أن القرآن "خطاب هادف يُراد به تحريك الإنسان نحو الموقف العملي، لا مجرد إغنائه بالمعلومة" (الحكيم، *علوم القرآن*، 34).

في هذا السياق، يؤكد الطباطبائي أن الخطاب القرآني لا يُقصد به الإفهام الذهني المجرد، بل الهداية العملية التي تتحقق من خلال تفاعل المخاطَب مع النص، إذ يرى أن "القرآن كتاب هداية، ولا تُفهم هدايته إلا بالنظر إلى ما يقتضيه الخطاب من التزام عملي ومعرفي" (الطباطبائي 19). هذه الرؤية تجعل من الخطاب القرآني فعلًا قصديًا يتوجّه إلى الإنسان بوصفه كائنًا فاعلًا في الواقع، لا متلقيًا سلبيًا للمعنى. ويعزّز ذلك ما يذكره الشيخ جعفر السبحاني من أن الخطاب القرآني "يتوجه إلى العقل والإرادة معًا، لأن المقصود منه صناعة الإنسان لا مجرد إعلامه" (السبحاني، *مفاهيم القرآن*، 1:21).

ويتجلّى هذا البعد التداولي في اعتماد المفسّر الشيعي على تحليل نوع الخطاب ذاته، وتمييزه بين الخبر والإنشاء، وبين الأمر الإلزامي والأمر الإرشادي، وبين الخطاب التعليمي والخطاب التقويمي. فهذه التمييزات ليست لغوية صِرفة، بل ذات طابع تداولي؛ لأنها تتعلق بوظيفة القول وأثره في المخاطَب. ويلاحظ في *الميزان* أن الطباطبائي كثيرًا ما يتوقف عند صيغة الأمر أو النهي ليبيّن ما إذا كانت تفيد الوجوب أو الإرشاد، مستندًا في ذلك إلى سياق الخطاب وهدفه، لا إلى الصيغة وحدها (الطباطبائي 87). ويشير الشيخ حسين علي المنتظري إلى أن "تمييز دلالة الأمر لا ينفصل عن ملاحظة الغاية التي سيق الكلام من أجلها، وإلا اختلط الإلزام بالإرشاد" (المنتظري، *دراسات في ولاية الفقيه*، 1:56).

كما يُبرز التفسير الشيعي وعيًا واضحًا بعلاقة الخطاب القرآني بمستويات المخاطَبين، إذ يُنظر إلى القرآن على أنه يخاطب الإنسان في أطوار معرفية مختلفة، ويستعمل أساليب متنوعة تتناسب مع تلك الأطوار. وهذا ما يفسّر تعدد الأساليب الخطابية في القرآن من قصص، وأمثال، وحجاج، وحوار، وكلها أنماط تداولية تهدف إلى التأثير والإقناع لا إلى مجرد البيان. ومن هنا، فإن المعنى القرآني يتشكل من خلال التفاعل بين النص والمتلقي، وهو مبدأ جوهري في المنهج التداولي. وفي هذا الإطار، يصرّح السيد كمال الحيدري بأن "تنوع الأسلوب القرآني ليس تزيينًا بل استراتيجية خطابية تُراعي اختلاف وعي المتلقين" (الحيدري، *مدخل إلى فهم الخطاب القرآني*، 17).

المطلب الثاني: السياق، المقام، والمقصد في بناء الدلالة القرآنية

يحتلّ السياق في التفسير الشيعي موقعًا مركزيًا في عملية فهم الخطاب القرآني، إذ يُعدّ عنصرًا حاكمًا في توجيه الدلالة وضبط المعنى. ولا يُقصد بالسياق هنا مجرد التتابع اللفظي للآيات، بل مجموع العناصر التي تحيط بالخطاب، وتشمل السياق اللغوي، وسياق النزول، والمقام الخطابي، والمقصد العام للنص. ويؤكد الشيخ محمد هادي معرفة أن "السياق هو الإطار الذي تتحدد فيه وظيفة الخطاب القرآني، ومن دونه ينفصل المعنى عن غايته" (معرفة، *التمهيد في علوم القرآن*، 2:143).

يؤكد الطباطبائي أن السياق هو "الميزان الذي تُعرف به حدود الدلالة القرآنية"، ويُحذّر من تفسير الآيات بمعزل عن سياقها الكلي، لما في ذلك من إخلال بالمعنى المقصود (الطباطبائي 44). ويكشف هذا الموقف عن إدراك تداولي لطبيعة المعنى بوصفه علاقة، لا جوهرًا ثابتًا، إذ إن الدلالة تتحدد من خلال موقع اللفظ في شبكة العلاقات النصية والسياقية. ويعضد هذا الفهم ما يذكره الشيخ عبد الهادي الفضلي من أن "الدلالة وليدة السياق، لا خاصية ذاتية للألفاظ" (الفضلي، *أصول التفسير*، 62).

أما في *مجمع البيان*، فيتجلّى الوعي بالمقام الخطابي من خلال ربط الآية بظروفها التداولية، سواء عبر بيان سبب النزول أو عبر تحديد طبيعة الخطاب وما يقتضيه من استجابة. فالطبرسي لا يتعامل مع سبب النزول بوصفه خلفية تاريخية محايدة، بل بوصفه عنصرًا تفسيريًا يُسهم في الكشف عن المقصد التداولي للآية، أي الغاية التي من أجلها وُجّه الخطاب (الطبرسي 129). ويصرّح الشيخ محمد رضا المظفر بأن "معرفة سبب النزول تُسهم في تعيين جهة الخطاب وحدود دلالته العملية" (المظفر، *أصول الفقه*، 1:48).

ويُضاف إلى ذلك أن التفسير الشيعي يميّز بين المعنى السياقي والمعنى الممتد، إذ يُقرّ بخصوصية المقام الأول، لكنه لا يحصر الدلالة فيه، بل يرى أن الخطاب القرآني يتجاوز لحظة النزول ليخاطب كل من يندرج تحت عنوان المخاطَب. ويُعدّ هذا المبدأ من أهم الأسس التداولية في التفسير الشيعي، لأنه يسمح للنص بأن يحتفظ بفاعليته التواصلية عبر الأزمنة المختلفة، من دون أن يفقد انضباطه الدلالي. وفي هذا الصدد، يرى السيد محمد حسين فضل الله أن "عالمية الخطاب القرآني تقوم على قابلية النص للتفاعل مع السياقات المتجددة دون التفريط بمقاصده الأصلية" (فضل الله، *الحوار في القرآن*، 11).

كما يظهر البعد المقصدي بوضوح في قراءة المفسّر الشيعي للخطاب، إذ لا يُفهم النص بمعزل عن غايته التشريعية أو التربوية أو العقدية. فالمقصد يُعدّ عنصرًا موجّهًا لفهم الأفعال الكلامية في القرآن، ويُسهم في تحديد نوع الإلزام الذي يفرضه الخطاب على المخاطَب. ومن هنا، فإن التفسير الشيعي لا يقف عند حدود "ماذا قال النص"، بل يتجاوز ذلك إلى "لماذا قيل، وكيف ينبغي أن يُتلقّى"، وهي أسئلة تداولية بامتياز. ويؤكد الشيخ محمد مهدي شمس الدين أن "فهم المقصد هو المفتاح لفهم وظيفة الخطاب القرآني في حياة الإنسان" (شمس الدين، *الإسلام ومنطق القوة*، 29).

المبحث الثاني: المنهج التداولي في التفاسير التراثية الشيعية

المطلب الأول: التحليل التداولي للخطاب القرآني في تفسير *الميزان*

أولًا: آيات النداء وبناء العلاقة التداولية

نموذج :﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾

لا يتعامل السيد محمد حسين الطباطبائي مع صيغة النداء القرآني ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بوصفها أسلوبًا إنشائيًا غايته مجرد لفت الانتباه، بل ينظر إليها بوصفها فعلًا تداوليًا تأسيسيًا يُنشئ علاقة خطابية خاصة بين المتكلّم الإلهي والمخاطَب المؤمن. فالنداء هنا يسبق التكليف، ويُعيد تعريف المخاطَب داخل منظومة القيم الإيمانية قبل تحميله المسؤولية الشرعية، وهو ما يمنح الخطاب بعدًا تداوليًا عميقًا يتجاوز الوظيفة اللغوية الصرفة.

يؤكد الطباطبائي أن هذا النداء «تشريف قبل التكليف»، إذ يُذكَّر المخاطَب بصفته الإيمانية ليكون الامتثال نابعًا من الوعي الذاتي لا من الإلزام الخارجي (الطباطبائي 112). ومن هذا المنطلق، فإن النداء لا يؤدي وظيفة إخبارية، بل يقوم بدور التمهيد التداولي الذي يهيّئ المخاطَب نفسيًا وأخلاقيًا لتلقّي الأمر اللاحق.

ويكشف هذا التحليل عن إدراك تداولي مبكر لطبيعة الخطاب، إذ يُنظر إلى المعنى بوصفه نتاج علاقة تواصلية، لا مجرد دلالة معجمية. فالآية لا تُفهم بمعزل عن هوية المخاطَب، ولا عن نوع العلاقة التي يُنشئها الخطاب بين الطرفين، وهو ما يتوافق مع الرؤية الشيعية التي ترى أن القرآن خطاب هداية موجّه، لا نصًا قانونيًا جامدًا.

ثانيًا: آيات الأمر وتحديد طبيعة الإلزام

نموذج :﴿أَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾

تُعدّ صيغة الأمر من أكثر الصيغ حضورًا في الخطاب القرآني، غير أن التفسير الشيعي، كما يتجلى في *الميزان*، يرفض اختزالها في دلالة الوجوب الصوري. فالطباطبائي يؤكد أن الأمر لا يُفهم بمعزل عن السياق والمقصد، وأن تحديد كونه إلزاميًا أو إرشاديًا يتوقف على شبكة القرائن النصية والموضوعية المحيطة بالآية (الطباطبائي 118).

في تفسير قوله تعالى: ﴿أَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾، يبيّن الطباطبائي أن الفعل الكلامي هنا لا يهدف إلى مجرد الحث أو التذكير، بل إلى إنتاج التزام عملي دائم، تدعمه آيات أخرى، وسياق تشريعي متكامل، وربط واضح بين الفعل والجزاء. ومن المنظور التداولي، فإن هذا الأمر يُعدّ فعلًا إنجازيًا (Performative Act) يُغيّر الوضع الاعتباري للمخاطَب، وينقله من حيّز الاختيار إلى حيّز المسؤولية.

ويكشف هذا التحليل أن المفسّر الشيعي لا يتوقف عند الصيغة اللغوية، بل يتجاوزها إلى وظيفة القول وأثره في المخاطَب، وهو جوهر المنهج التداولي في فهم الخطاب.

ثالثًا: آيات الوعيد وبناء الأثر النفسي

نموذج :﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ﴾

تحتل آيات الوعيد موقعًا محوريًا في الخطاب القرآني، ويبرز في تفسير *الميزان* وعيٌ واضح بوظيفتها التداولية. فالطباطبائي يرى أن ذكر يوم الرجوع إلى الله لا يُقصد به التخويف المجرد، بل إعادة تشكيل وعي المخاطَب بالزمن والمصير، بما يجعل الخطاب عنصرًا فاعلًا في توجيه السلوك (الطباطبائي 134).

ومن منظور تداولي، يُعدّ هذا الأسلوب مثالًا على الأفعال الكلامية التأثيرية، إذ لا يقتصر المعنى على ما يُقال، بل يمتد إلى الأثر المتوقع في نفس المتلقي، من خشية ومراقبة ذاتية. ويؤكد الطباطبائي أن هذا الأثر لا يتحقق إلا إذا فُهم الخطاب في سياقه الكلي، بوصفه جزءًا من منظومة هداية متكاملة.

رابعًا: آيات القصص بوصفها خطابًا إقناعيًا

نموذج :﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ﴾

يرى الطباطبائي أن القصص القرآني لا يؤدي وظيفة سردية محضة، بل يُوظَّف بوصفه أداة تداولية للإقناع والتوجيه .فالقصة لا تُقدَّم لذاتها، وإنما تُنشئ علاقة تشابه بين المخاطَب وأقوام السابقين، بما يدفعه إلى استنتاج العبرة دون أمر مباشر (الطباطبائي 190).

وهذا النمط من الخطاب يُعدّ من أرقى أشكال التداولية، إذ يُنتج المعنى عبر التفاعل والاستنباط، لا عبر التصريح، وهو ما يعكس وعيًا عميقًا بطبيعة التواصل وتأثيره في المتلقي.

المطلب الثاني: المقاربة التداولية للخطاب القرآني في تفسير *مجمع البيان*

يمثّل تفسير *مجمع البيان في تفسير القرآن* للفضل بن الحسن الطبرسي نموذجًا مبكرًا ومتقدمًا في التعامل مع الخطاب القرآني بوصفه خطابًا تواصليًا موجَّهًا، لا مجرد بنية لغوية قابلة للتحليل النحوي أو البلاغي. فعلى الرغم من الطابع الموسوعي للتفسير، الذي يجمع بين اللغة، والقراءات، والفقه، وأسباب النزول، فإن الطبرسي يُظهر وعيًا تداوليًا واضحًا في ربط الدلالة بالسياق، والمقام، ووظيفة الخطاب، وهو ما يجعل *مجمع البيان* أرضية خصبة لتحليل اشتغال التداولية في التفسير الشيعي التراثي.

ويقوم المنهج التداولي عند الطبرسي على مبدأ أساسي مفاده أن الآية القرآنية لا تُفهم على وجهها الكامل إلا باستحضار جهة الخطاب والغرض منه، وهو ما ينعكس في حرصه الدائم على بيان سبب النزول، وتحديد نوع الخطاب (أمر، نهي، وعد، وعيد، حوار)، وربط ذلك بالاستجابة المتوقعة من المخاطَب.

أولًا: الاستفهام الإنكاري بوصفه فعلًا تداوليًا تحريضيًا

نموذج :﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِمْ﴾ (البقرة: 243)

يفسّر الطبرسي هذا الأسلوب بوصفه استفهامًا إنكاريًا لا يُراد به طلب العلم، بل تحريك وعي المخاطَب ودفعه إلى التأمل في العبرة الكامنة في الحدث .فالآية، في نظره، تخاطب النبي صلى الله عليه وآله، بينما المقصود الحقيقي هو عموم المخاطَبين، وهو ما يكشف عن إدراك تداولي لآلية التوسّع في جهة الخطاب (الطبرسي 202).

ومن المنظور التداولي، فإن هذا الاستفهام يُعدّ **فعلًا كلاميًا غير مباشر**، إذ لا يطلب جوابًا، بل يُنتج أثرًا معرفيًا يتمثل في إعادة تقييم المخاطَب لموقفه من سنن الله في الحياة والموت. ويؤكد الطبرسي أن هذا الأسلوب أبلغ في التأثير من التصريح المباشر، لأنه يُشرك المتلقي في إنتاج المعنى بدل تلقّيه جاهزًا.

ثانيًا: آيات الأمر وربط الخطاب بالسلوك الجماعي

نموذج :﴿وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ﴾ (الرحمن: 9)

يتعامل الطبرسي مع هذه الآية بوصفها خطابًا يتجاوز الفرد إلى الجماعة، إذ يرى أن الأمر هنا لا يقتصر على توجيه أخلاقي فردي، بل يؤسس منظومة عدلية اجتماعية تُخاطَب بها الأمة بوصفها كيانًا متفاعلًا (الطبرسي 214).

ويكشف التحليل التداولي أن الفعل الكلامي «أقيموا» لا يهدف إلى مجرد بيان مبدأ العدل، بل إلى إنتاج التزام سلوكي جماعي ينعكس في المعاملات الاقتصادية والاجتماعية. ويؤكد الطبرسي أن فهم هذا الأمر لا يستقيم إلا بربطه بسياق السورة التي تقوم على ميزان الكون والعدل الإلهي، وهو ما يجعل الدلالة رهينة بالمقام لا بالصيغة وحدها.

ثالثًا: آيات الوعد والوعيد وبناء الموقف الوجداني

نموذج :﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ﴾ (النساء: 57)

يرى الطبرسي أن هذا الخطاب يؤدي وظيفة تداولية مزدوجة :الوعد للمؤمنين، والردع الضمني لغير الملتزمين. فالآية لا تكتفي بوصف الجزاء، بل تُنشئ حالة وجدانية تحفّز المخاطَب على الالتزام بالفعل الصالح (الطبرسي 230).

ومن زاوية تداولية، يُعدّ هذا الأسلوب مثالًا على الأفعال الكلامية التأثيرية، إذ يُقاس نجاح الخطاب بمدى قدرته على تعديل السلوك لا بمجرد نقل المعلومة. ويؤكد الطبرسي أن تكرار هذا النمط من الخطاب في القرآن يهدف إلى ترسيخ العلاقة بين العمل والجزاء في وعي المخاطَب.

رابعًا: آيات الحوار وبناء العلاقة التفاعلية مع المخاطَب

نموذج :﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ (غافر: 60)

يفسّر الطبرسي هذه الآية بوصفها خطابًا حواريًا يُنشئ علاقة تواصلية مباشرة بين الله والمخاطَب، لا على مستوى الإعلام، بل على مستوى الفعل والاستجابة. فالقول الإلهي هنا لا يقدّم معلومة، بل يدعو إلى ممارسة فعلية هي الدعاء، مقرونة بوعد الاستجابة (الطبرسي 250).

ويكشف التحليل التداولي أن هذا الخطاب يقوم على مبدأ التفاعل، حيث لا يكتمل معناه إلا بتحقق الاستجابة من الطرف الآخر، وهو ما يجعل القرآن، في تصور الطبرسي، خطابًا حيًا قائمًا على الأخذ والرد، لا نصًا أحادي الاتجاه.

خامسًا: سبب النزول بوصفه عنصرًا تداوليًا لا تاريخيًا

يولي الطبرسي أهمية كبيرة لبيان سبب النزول، غير أنه لا يتعامل معه بوصفه معلومة تاريخية معزولة، بل بوصفه مفتاحًا تداوليًا لفهم جهة الخطاب ومقصده .فسبب النزول، في منهجه، يُسهم في تحديد نوع الفعل الكلامي، وطبيعة الإلزام، وحدود التعميم، وهو ما يكشف عن وعي واضح بأن المعنى لا يُفهم خارج شروط إنتاجه الأولى.

غير أن الطبرسي لا يحصر الدلالة في سبب النزول، بل يؤكد أن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، وهو ما يسمح للخطاب القرآني بالاستمرار في أداء وظيفته التداولية عبر الأزمنة المختلفة (الطبرسي 129).

يتبيّن من هذا العرض أن مجمع *البيان* لا يقلّ من حيث العمق التداولي عن *الميزان*، وإن اختلف عنه في الأسلوب والمنهج. فالطبرسي يمارس التداولية من خلال:

- ربط الصيغ الخطابية بوظائفها العملية،
- استحضار المخاطَب والمقام في توجيه الدلالة،
- تحليل الأوامر والنواهي بوصفها أفعالًا كلامية مؤثرة،

- توظيف الحوار، والوعد، والوعيد في تشكيل الموقف السلوكي.

وعليه، يمكن القول إن تفسير مجمع *البيان* يمثّل نموذجًا شيعيًا تراثيًا أصيلًا في قراءة الخطاب القرآني قراءة تداولية، تُبرز النص بوصفه فعلًا تواصليًا حيًا، لا مجرد بناء لغوي مغلق.

النتائج

1. التداولية بوصفها إطارًا منهجيًا مشتركًا في التفسير الشيعي

تكشف الدراسة أن التفسير الشيعي، في نماذجه التراثية الكبرى، ينطلق من تصور للقرآن الكريم بوصفه خطابًا إلهيًا حيًّا وموجَّهًا، لا نصًا لغويًا مكتفيًا بذاته. ويتجلى هذا التصور بوضوح في كلٍّ من *تفسير الميزان* ومجمع *البيان*، حيث يتعامل المفسّران مع الآية القرآنية باعتبارها فعلًا تواصليًا يُنشئ علاقة مقصودة بين المتكلِّم الإلهي والمخاطَب الإنساني، ويستهدف إحداث أثر معرفي وأخلاقي وسلوكي. وبهذا المعنى، لا تُعدّ التداولية عنصرًا طارئًا في التفسير الشيعي، بل بعدًا بنيويًا حاضرًا في رؤيته للخطاب القرآني.

2. تنوّع أفعال الكلام وتكامل وظائفها بين الميزان ومجمع البيان

أظهرت النماذج التطبيقية أن التفسير الشيعي يولي عناية خاصة لطبيعة أفعال الكلام في القرآن الكريم، من أمر ونهي ونداء واستفهام وحوار ووعد ووعيد، غير أن مقاربة هذه الأفعال تختلف في أسلوبها بين الطباطبائي والطبرسي من دون أن تفقد وحدتها المنهجية. ففي حين يميل *الميزان* إلى تحليل الأفعال الكلامية ضمن النسق القرآني الكلي ومقاصده العامة، يركّز مجمع *البيان* على تفعيلها ضمن سياقاتها الخطابية المباشرة وأثرها في المخاطَب. ويكشف هذا التكامل عن وعي تداولي ناضج يرى أن وظيفة القول لا تنفصل عن المقام والسياق والاستجابة المتوقعة.

3. السياق والمقام والمقصد بوصفها محددات تداولية جامعة

بيّنت الدراسة أن السياق اللغوي، والمقام التاريخي، والمقصد الإلهي تشكّل عناصر حاكمة في بناء الدلالة القرآنية عند المفسّر الشيعي، سواء في *الميزان* أو مجمع *البيان* .فالطباطبائي يؤكد مركزية السياق النصي الداخلي وربط الآيات بمنظومة القرآن الكلية، بينما يمنح الطبرسي أهمية كبرى لجهة الخطاب وسبب النزول والمقام التداولي. غير أن الاختلاف هنا ليس تعارضًا منهجيًا، بل تنوّعًا في زوايا المقاربة ضمن إطار تداولي واحد يرى أن المعنى لا يثبت خارج شروطه السياقية والمقصدية.

4. من الدلالة إلى الأثر: مركزية الوظيفة في التفسير الشيعي

أثبت التحليل أن التفسير الشيعي لا يتوقف عند حدود شرح الألفاظ أو بيان المعاني الاحتمالية، بل يتجاوز ذلك إلى ربط النص القرآني بوظيفته التأثيرية في الواقع الإنساني. فالآية، في تصور الطباطبائي والطبرسي على السواء، تؤدي دورًا إنجازيًا يتمثل في توجيه الوعي، وضبط السلوك، وبناء الالتزام الديني والأخلاقي. ومن ثمّ، يُفهم القرآن بوصفه خطابًا فاعلًا يُنتج أثره عبر التفاعل مع المخاطَب، وهو ما يضع التفسير الشيعي في صميم القراءة التداولية للنص.

5. الإسهام التفسيري الشيعي في تأصيل التداولية القرآنية

خلص البحث إلى أن التفاسير الشيعية التراثية، وفي مقدمتها *الميزان* ومجمع *البيان*، قد أسّست من داخل المنظومة المعرفية الإسلامية لممارسة تفسيرية تداولية متكاملة، سبقت التنظير اللساني الحديث في ربط المعنى بالفعل، والدلالة بالمقصد، والخطاب بالأثر. ويتيح هذا المنجز التراثي إمكان تطوير دراسات تحليل الخطاب القرآني المعاصرة ضمن إطار تأصيلي منضبط، يُغني التداولية الحديثة بدل أن يخضع لها، ويؤكد خصوصية الرؤية التفسيرية الشيعية في التعامل مع النص القرآني بوصفه خطاب هداية حيًّا ومتجدّدًا.

الخاتمة

يتضح من الدراسة أن التفسير الشيعي يمتلك وعيًا تداوليًا أصيلًا بالنص القرآني، يتجلى في التعامل مع الآيات بوصفها أفعال كلامية لها مقصد وتأثير، وفي إدراك المخاطَب والسياق والمقام والمقصد. وقد أظهرت الأمثلة التطبيقية أن الطباطبائي والطبرسي ركزا على وظيفة الخطاب أكثر من دلالته الصرفة، مع مراعاة شبكة العلاقات النصية التي تحدد المعنى التداولي.

وتعكس هذه النتائج أن التفسير الشيعي لا يقتصر على توضيح المعنى اللغوي أو البلاغي، بل يسعى إلى تفعيل الخطاب القرآني عمليًا، عبر:

- توجيه المخاطَب نحو الالتزام الشرعي والأخلاقي،
- تنمية وعيه بمقاصد القرآن،
- استخدام أساليب خطابية متعددة لتحقيق أثر محدد،
- ربط الشكل اللغوي بالغرض، أي الجمع بين اللغة والتأثير.

وهكذا يمكن اعتبار التفاسير الشيعية التراثية بمثابة منهج تداولي أصيل يوضح كيف يمكن للنص القرآني أن يُقرأ بوصفه خطابًا حيًّا، قائمًا على الفعل والتأثير، لا مجرد النص اللغوي الجامد. ويشكل هذا الأساس المعرفي والتطبيقي نقطة انطلاق مهمة لأي دراسات حديثة في تحليل الخطاب القرآني، مع الحفاظ على المرجعية التراثية والأصالة الفكرية.

تؤكد الخاتمة أيضًا أن توسيع الدراسات التداولية على النص القرآني من المنظور الشيعي يفتح آفاقًا بحثية جديدة، سواء على مستوى الفهم العلمي للنص، أو على مستوى التطبيقات العملية للتفسير في التربية والتعليم الديني، وهو ما يمثل إسهامًا أصيلاً في تطوير الدراسات القرآنية المعاصرة ضمن إطار معرفي إسلامي أصيل.

قائمة المصادر والمراجع

1. الحكيم، محمد باقر. علوم القرآن. قم: دار التراث، 1417هـ.
2. الحيدري، كمال. مدخل إلى فهم الخطاب القرآني. قم: مركز المصطفى للدراسات الفكرية، 1435هـ.
3. الحيدري، كمال. منطق فهم القرآن. الجزء الأول والثاني. دار المعارف الإسلامية، 2012م.
4. الطبرسي، الفضل بن الحسن. مجمع البيان في تفسير القرآن الكريم. دار المعرفة، 1407هـ، مجلد 1.
5. الطبرسي، الفضل بن الحسن. مجمع البيان في تفسير القرآن الكريم. دار المعرفة، 1407هـ، مجلد 3.
6. الطبرسي، الفضل بن الحسن. مجمع البيان في تفسير القرآن الكريم. دار المعرفة، 1407هـ، مجلد 4.
7. الطبرسي، الفضل بن الحسن. مجمع البيان في تفسير القرآن الكريم. دار المحققين، 1410هـ، نسخة كاملة متعددة الأجزاء.
8. الطوسي، محمد بن الحسن. التبيان في تفسير القرآن. 4 مجلدات. دار الكتب الإسلامية، 1410هـ.
9. الطباطبائي، محمد حسين. الميزان في تفسير القرآن الكريم. دار إحياء التراث العربي، 1407هـ، طبعة أولى.
10. الطباطبائي، محمد حسين. الميزان في تفسير القرآن الكريم. دار إحياء التراث العربي، 1407هـ، مجلد 1.
11. الفضلي، عبد الهادي. أصول التفسير. قم: دار الغدير، 1422هـ.
12. المظفر، محمد رضا. أصول الفقه. ج 1. قم: دار التعارف، 1408هـ.
13. المنتظري، حسين علي. دراسات في ولاية الفقيه. ج 1. قم: دار الفكر الإسلامي، 1409هـ.
14. السبحاني، جعفر. مفاهيم القرآن. ج 1. قم: مؤسسة الإمام الصادق، 1418هـ.
15. شمس الدين، محمد مهدي. الإسلام ومنطق القوة. بيروت: المؤسسة الدولية للدراسات والنشر، 1996.
16. معرفة، محمد هادي. التمهيد في علوم القرآن. ج 2. قم: مؤسسة النشر الإسلامي، 1416هـ.